الذئاب المنفردة

ربما لم يُصنع اصطلاح تبريري وذرائعي في تاريخ الإرهاب أكثر من «الذئاب المنفردة»، والذي قصد به، مع الطور الأخير من الإرهابيين، قيام أفراد متأثرين بأفكار تنظيم «داعش» أو منتمين إليه سرا بعمليات إرهابية متفرقة في بعض الدول، ثم الإعلان عن أنفسهم، أو التكتم وترك هذه المهمة لإعلام التنظيم، الذي يُسند هذه الحوادث أو ينسبها إلى نفسه، في إطار سعيه إلى تعظيم قوته، لأغراء آخرين بالانضمام إليه، أو الكيد لخصومه والضغط عليهم، أو السير خطوات نحو هدفه.

و«الذئب المنفرد» بات يمثل آلية تنتهجها المنظمات الإرهابية بغية ارتكاب اعتداءات دون أن تتورط فيها بشكل مباشر، وتفضي في غالب الأحيان إلى عمليات دموية قد يكون لها أثر تحفيزي ودعائي يرمي بالأساس إلى استقطاب المزيد من الأشخاص الذين يستهويهم «الفكر الجهادي»، وقد تؤثر بالفعل في سياسات بعض الدول حيال التعامل مع داعش. وهذا الاصطلاح ينبع من عدة اعتبارات يمكن ذكرها على النحو التالي:

١. هو اصطلاح أفرزته المؤسسات الأمنية الغربية، في إطار تفسيرها لبعض الحوادث الإرهابية التي تقع هناك، وعدم توصل أجهزة الأمن إلى فاعل حقيقي لها، أو توصلها ثم تأكدها من غياب أي صلات تنظيمية أو إدارية أو مالية بين الفاعل وبين قيادات التنظيم الموجودة في منطقة «الدولة الإسلامية» على أجزاء من أرض العراق وسوريا.

٢. هو اصطلاح تم التمهيد له من أيام مواجهة تنظيم القاعدة، وتحديدا عقب ضرب التنظيم بشدة على أرض أفغانستان، وإزاحة حركة طالبان التي كانت تحتضنه عن الحكم. فوقتها تم الحديث في كثير من الأدبيات السياسية والأمنية عن تحول القاعدة من تنظيم إلى فكرة، بمعنى أن الصلات التنظيمة المباشرة بين قادة القاعدة وقواعده في مختلف الدول صارت واهية جدا، أو انعدمت تماما، لكن الأفكار، التي لا سلطان عليها، ساحت في الأرض، وصار هناك من يعتنقها في أماكن عدة، وبوسعه أن يكمل الطريق الذي رسم قادة القاعدة معالمه. وقبل داعش، طالما خرج قادة القاعدة ببيانات وتصريحات عقب بعض الحوادث الإرهابية المتفرقة، ينسبونها إليه، ويؤكدون أن مرتكبها، أو مرتكبيها، تابعون للتنظيم.

٣. هـذا الاصطـلاح محمـل بالـدلالات في حـد ذاتـه، فهـؤلاء «ذئـاب» في نظـر مـن ينعتونهـم بهـذا، وبالتالي فهـم يحملون عندهـم كل الصفـات الـتي يملكهـا الذئـب مـن غـدر وشراسـة وشـره، وهـي مـا دفعـت، مـن قبـل ذلـك بكثـير، أتبـاع مختلـف الثقافـات، إلى وصـف المغتصبـين للنسـاء بالذئـاب البشـرية. ونظـرا لأن مرتكـبي الحـوادث الإرهابيـة الفرديـة، طالمـا يفاجئـون الـدول بعمليـات خسيسـة، وبعضهـم يحمـل جنسـية هـذه الـدول لكنـه يغـدر بأهلهـا، ومثـل هـؤلاء متعطشـون للدمـاء، فـإن مصطلـح الذئـاب يبـدو مناسـبا لهـم.

٤. تآلـف إرهابيـو داعـش مـع هـذا المصطلـح، مثلمـا سـبق أن تآلفـت الجماعـات والتنظيمـات الـتي تمـارس الإرهـاب والعنـف علـى خلفيـة دينيـة مـع اصطـلاح «إرهابـي» زاعمـة أن هـذا الوصـف يليـق بأتباعهـم لأنهـم يرهبـون «عـدو الله». ولـذا لم يتـوان بعـض عناصـر التنظيـم مـن تأليـف كتـاب في هـذا الصـدد، وصفـوه بأنـه «هديّـة للأحبّـة المجاهديـن و أنصارهـم» وصـادر عـن مؤسسـة تسـمى «مجمـع البحريـن» تحـت عنـوان: «الذئـب المنفـرد: كابـوس أمريـكا» **The Lone Wolf: The American Nightmare**، ويحتـوى علـى سـيرة عشـرين إرهابيـا منفـردا يقـول الكتـاب إنهـم «دكّـوا أمريـكا دكّا «، ويقصـد بهـم الذيـن شـاركوا في ضـرب برجـي التجـارة العالمـي في نيويـورك يـوم ١١ سـبتمبر ٢٠٠١.

وعلـى مواقـع بعـض الدواعـش هنـاك نصائـح تفيـد في الإجابة

على سؤال: كيف تصبح ذئبا منفردا، لكنهم وضعوها تحت عنوان «كيفية الإعداد للنفير والتجهز له»، وهي تجري في رأي الدواعش وتدبيرهم على أساس تفسيرهم المعوج للآية القرآنية التي تقول»: وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ»، إذ يفترضون أنهم هم أنصار الله، وأن من يقاومونهم ويقاتلونهم أعداء الله، سائرين في هذا على درب من سبقوهم من التنظيمات والجماعات التي مارست العنف والإرهاب.

وتقول هذه النصيحة، التي يبدو أن ذئبا منفردا قد أعدها، في تناقض عجيب: «إن الله وهبنا العقول كي نتدبر ونتفكر، فكل شيء له سبب شرعي، فإذا عزمت على النفير وجب مراعاة الأمرين .. وعند النفير يجب أن تتجهز لثلاثة أمور مهمة قبيل النفير، وهي: الإعداد الشرعي، والإعداد العلمي والعملي، وإيجاد الطريق للوصول إلى الهدف». ثم يبدأ في إعطاء دروس في الإعداد البدني، وتعلم قيادة الشاحنات، أو أعمال الحدادة والخراطة من أجل تصنيع الأسلحة.

المرحلة الأولى:

ويعتبرها الدواعش من أهم المراحل لأنه في نظرهم «الإعداد الشرعي هو رأس الهرم في التجهيز للنفير، وهو السلاح الخفي الذي لا يُهزم أبدًا، وبذا فهو لا يقل ضراوة عن السلاح العسكري».

وينصح الدواعش أتباعهم، أو ذئابهم المنفردة، بأن يتوخوا الحذر في تلقي ما يسمونه «العلم الشرعي» وهم «في أرض الطاغوت» حتى لا يثيرون الشبهات، أو الشكوك بأنهم يستعدون للنفير. ويرون أن الأمر بات بسيطا مع وجود الإنترنت، فيقولون لأي ذئب منفرد: «توفير الإنترنت يُمكِّنك من الحصول على خطب سابقة لشيوخ الثغور والسجون».

وتقول الوثيقة: «لا يمنعك الإعداد للنفير من التردد على المساجد، لكن لا يجب أن تتردد إليها بما يثير الشبهة، فاذهب إلى صلاة الجمعة، واقض الفروض، لكن لا تمكث طويلا هناك، ولا تُكوِّن مجموعات في المسجد ، فجند الطاغوت في كل مكان لهم عيون، ولا تثق بكل من يرتاد المسجد ، ولا تبوح لأي أحد بأنك تود النفير أو أنك تسعى لذلك ... فسيكون ردهم إما أن تُعتقل أو يزيغهم كلامهم عما أنت فيه، ولا تبوح لأحد بأنك تتبع الشيخ الفلاني والفلاني فهم يعرفون الشيوخ الذين كفروا بالطاغوت، وكن شديد التكتم في الأمور الدينية، وأوصيك ونفسي بحفظ ما تستطيع من علوم الشرع ، وذلك بخفية عن أعين الطواغيت، وأوصيك بقيام الليل في ثلثه الأخير، فإن أردت أن يسهل لك الله النفير فأكثر من طلب علوم الشرع ، وذلك بشكل لا يثير الشبهة عليك ؟! يعني: حاول تخفيف اللحية، وتجنب ارتداء الحلس، وارتدي ملابس عادية لكن بشرط ألا تخالف شريعة ربنا ولا تثير عيون الدبابيس عليك.. أما زوجتك

وأطفالك، فلا تحرمهم أيضاً من أجر التفقه في دين الله، بل حثهم عليه وحاول أن تلقنهم ذلك. وأعلم أنك كلما ازدادت معرفتك بعلوم الشرع ستخفف العناء على المعهد الشرعي في أرض الخلافة، وتفسح بذلك المجال لمن هو يحتاج ذلك».

المرحلة الثانية:

ويعتبرونها تمثل قوة هرم الإعداد للنفير. وهنا تقول الوثيقة: «عندما تنفر الى دولة الإسلام فإن الدولة ليست بحاجة فقط لمن يحمل السلاح فهي بحاجة لخبرات تقنية وعسكرية وأكاديمية، فكيف تستطيع إعداد نفسك لهذا الشيء إن لم تكن صاحب خبرة في ما سبق؟».

ويعدد من كتب هذه النصائح للذئب المنفرد في داعش ما تحتاجه «دولة الخلافة» قائلا: «إن أهم العلوم التي تحتاجها الدولة هي الطب، فإذا لم تكن طبيبا وتحاول النفير ، تستطيع أن تكون طبيب مساعد؟ فهناك فيديوهات على اليوتيوب تعلمك الإسعافات الأولية، والأمر فيها مشروح بالتفصيل، فأنت في أرض المعركة لن تجد بجانبك مستشفى كي تسعفك، ولذا عليك أنت أو أحد الأخوة أن تقوموا بالمداواة، وإذا كنت ذئبا منفردا فأنت بحاجة إلى ذلك. وإن كنت جنديا أيضاً فأنت بحاجة إليه. وإن لم تستطيع فهم اكتساب مهارة الإسعافات الأولية من خلال النت تستطيع الالتحاق بدورة إسعافات أولية في الهلال الأحمر .. إني

أشدد عليكم في هذا الأمر، لأنه ضروري جدا، فكم من أخ لم يعرف الأخوة إسعافه، واستشهد بسبب جرح بسيط «.

بعد هذا ينتقل الناصح إلى ضرورة اكتساب ما يسميه «العلم الإلكتروني»، ويراه «شديد الضرورة» بدعوى أن داعش في «حرب مع التحالف الصليبي المعتمد على الحرب الألكترونية»، وتقول: «أنت كمناصر بحاجة لهذا الأمر لتحاشي وتجنب الاعتقال ، وكجندي وقائد بالدولة أيضاً بحاجة له»، ثم يضرب مثلا لتبرير هذا، فيقول: «عندما ينتقل رتل الأخوة متوجها الى الغزوة يتم تعقبه من خلال الشرائح الإلكترونية وجواسيس الهواتف. وعند وصول الأخوه لثكنة من أجل اقتحامها، يقوم المرتدون بطلب المؤازرة بواسطة الاتصال الإلكتروني. فكيف نتغلب على ذلك؟ يمكننا أن نقاوم هذا عبر الكتم الإلكتروني للموقع باستخدام أجهزة بدائية الصنع، لكن قلة هم الذين يعلمون بتلك الأمور .. لذا وجب عليك أنت يا من تود النفير أن تتعلم هذا العلم، فالأخوة بحاجة لذلك».

وفي هذه المرحلة يبدأ المسار الثاني وهو يتعلق باللياقة البدنية، وهي أمر مهم لهم، وهنا يقول الداعشي: «عند تعرضك للإصابة يعتمد شفاؤك، من بعد الله، على لياقتك البدنية، وقتالك أيضاً يعتمد على ذلك. فإذا كنت غارقا في معصية التدخين ستكون ذا لياقة متدنية. فكيف تستعيد لياقتك وتحافظ عليها؟».

هنا ينصح الذئب المنفرد بأن يلتزم بجدول معين للتمارين الرياضية، وآخر للتغذية. ويمكنه أن يلتحق بأحد المعاهد الرياضية، ويتعلم فنون القتال. ليبدأ مرحلة الإعداد العسكري، «وهو أمر مهم بالنسبة للذئب المنفرد، ولطالب النفير، وللأخت التي تخشى الأسر».

وبعدها «يتعلم استخدام السلاح، من فك وتركيب وتصويب، وصولا إلى تعلم كيفية قيادة الدبابات .. بل ما إننا في حرب تسمى حرب الطائرت فوجب على الذين يودون النفير تعلم قيادة الطائرات ولو البسيط منها مثل الطائرات المسيرة والعامودية. كما يجب تعلم كيفية اقتحام الثكنات والمعسكرات. وهناك بعض الآليات العسكرية أيضاً لا يجد الأخوة من يقودونها فوجب عليك أيها المتفرغ أن تتعلم هذا، وتنفع أخونك به عند النفير .. ويجب أن نطور مجال التفخيخ أيضاً؟ وذلك من خلال دمج الدوائر الألكترونية».

وعلاوة على هذا يطلب الداعشي من الذئب المنفرد أن يتعلم قيادة الشاحنات، لاستعمالها في النقل والده (مثلما جرى في حادث نيس بفرنسا) وأن يتعلم الحدادة لأن «دولة الإسلام بحاجة إلى تصفيح سيارات الاستشهادين، وصناعة قوالب العبوات»، ثم تعلم «صناعة الكواتم» و«صناعة السلاح» لأن «مصانع دولة الإسلام بحاجة لأشخاص يعرفون كيفية تصنيع الأسلحة».

المرحلة الثالثة:

فإعداد الفرد في المرحلتين السابقتين، لا يكون إلا من أجل النفير، وهنا على الأخ أن «يصفي نيته لله، ونصرة المسلمين»، ثم يبدأ السير في طريقه إلى «أرض الخلافة». وقد يبدأ هذا عبر الاتصال الإلكتروني، وهنا «على الأخ ألا يثق في أحد لا يعرفه معرفة شخصية على الفضاء الالكتروني .. فأنت لا تعرف من خلف الشاشة ولا تثق حتى بي أنا، لا تثق إلا بالله».

وبعدها «توكل على الله واركب أول طائرة إلى تركيا بغرض السياحة. وعليك ألا تثير الشبهة، وأن تتصرف كبقية السياح، ولا تأخذ معك كثيرا من المال، حتى لا تكون محل طمع المهربين وقطاع الطرق. وتحت جنح الظلام اركب إلى الحدود السورية، وهناك ابحث في حذر عن مُهرِّب».

بهذا فإن«الذئب المنفرد» يجب أن يكون مدربا وأن يمتلك مهارات وخبرات أمنية وقتالية، وأن يكون تحركه منفردا ومنعزلا لكنه فعال، الأمر الذي يجعله يتفادى الوقوع في أخطاء قد ترتكبها مجموعة كاملة، لأنه من السهل رصد تحركها».

وندرك مما ورد في المرحلتين الثانية والثالثة أن إعداد الذئب المنفرد لا يكون فقط من أجل استخدامه في أعمال إرهابية داخل المكان الذي يعيش فيه، ثم ينسب هذا لداعش، إنما أيضا بغرض تجهيزه للسفر إلى «أرض الخلافة»، والانضمام إلى المقاتلين هناك.

وما سبق يشي بأن «الذئب المنفرد» صار اليوم آلية ناجحة تنتهجها المنظمات الإرهابية بغية ارتكاب اعتداءات دون أن تتورط فيها بشكل مباشر وتفضي في غالب الأحيان إلى عمليات دموية قد يكون لها مفعول تحفيزي ودعائي لاستقطاب المزيد من الأشخاص الذين يستهويهم الفكر الداعشي، وما على شاكلته.

إن العمليات الإرهابية تقوم على شق فكري وآخر عملي والجانب العملي يمكن السيطرة عليه أو تتبعه أمنيا لكن الجانب الفكري يصعب تعقبه والتحكم فيه خاصة في ظل ثورة الاتصالات والإمكانيات التكنولوجية الهائلة التي نتوفر عليها اليوم في مجتمعاتنا. وهو ما تستغله الجماعات الجهادية والإرهابية للتجنيد والتأثير في هذه العناصر التي لا تربط بينها علاقات والمتواجدة في أماكن متفرقة في العالم ، وهذا التأثير يرمي بالأساس إلى إيجاد «ذئاب منفردة» في كل مكان.

فعلى سبيب المثال فإن القاعدة اليوم قد تفكك كتنظيم إلا أنه موجود كفكرة وعقيدة ولا يزال يلهم، أو بمعنى أدق يخدع، عناصر بينهم أشخاص يقطنون في الغرب ويحملون جنسيات دوله في الكثير من الحالات. وهؤلاء تأثروا بالفكر السلفي المتشدد، سواء الذي يصدره القاعدة أو داعش، ويتبنون فكر القاعدة وبالتالي يحملون تصورا للمجتمع الذي يعيشون فيه مخالفا للمجتمع المثالي والطوباوي الذي تروج له المنظمات السلفية والجهادية المتطرفة الذي تصور لهم

مجتمعاتهم كمجتمعات صليبية معادية للإسلام والمسلمين. بالتالي تجنح هذه العناصر إلى التصرف الفردي القائم على الرغبة في الانتقام من هذه المجتمعات الغربية حتى ولو كانت هذه المجتمعات هي التي احتضنتهم وولدوا وعاشوا فيها ولا يعرفون غيرها. كما أن الدول الغربية عموما تضم الملايين من الشباب من أصول مهاجرة مسلمة يجدون أحيانا صعوبة في فرض أنفسهم في هذه المجتمعات بسبب العنصرية والتجاهل ما يولد لديهم قدرا كبيرا من الحقد ويحول هذه المشاعر إلى طاقة عدوانية تجاه هذه المجتمعات الغربية التي تعتبرهم أحيانا مواطنين من الدرجة الثانية. فتصبح بذلك هذه العناصر فريسة سهلة للقاعدة وغيرها التي تدفعهم بشكل مباشر أو غير مباشر للقيام بعمليات إرهابية واعتداءات.

إن مواقع الإنترنت التي يطلقها الإرهابيون متوفرة اليوم بلغات مختلفة والجماعات تتواصل مع المجندين الجدد عبر مواقع التواصل الاجتماعي والمنتديات. وغالبا ما تبث رسائل تحريضية وتدعو إلى عمليات كبرى ومتعاقبة.

فمثلا أظهرت التحقيقات في اعتداءات بوسطن أن المشتبه فيهما كانا يخططان لتنفيذ اعتداءات متزامنة ومتتالية وإحداث نوع من العدوى التي قد تنتشر في كامل الولايات المتحدة الأمريكية وحتى أماكن أخرى.